مقدمة بقلم عميدة الاستشراق
أ. دكتورة أنا ماريه شمل

«المرءُ عدوُ ما يجهل»: كلمة تُنسب إلى علي بن أبي طالب (رضي اللّه عنه)، ابن عم النبي ﷺ وزوج ابنته فاطمة الزهراء، ورابع الخلفاء الراشدين (رضي اللّه عنهم أجمعين)، وأول إمام لَدَى الشيعة. الواقع أن الجهل يورث الكراهية والبغضاء، وأن عدم المعرفة، الذي ينجم عنه الخوف، حقيقةٌ يسجّلها دارسو العلاقات بين الأفراد، وبين الدول بعضها ببعض، وذلك على تقلب العصور..

ولا يحسبنَّ أحد أن احتشاد وسائل الإعلام بالمنشورات والمؤلفات والبرامج والندوات كافٍ لجلاء غموض ما نجهل، ذلك أن من يحاول جَلاء ذلك الغموض قد يعالج بعض الجوانب على حساب غيره، فيغمِطَ حقائقَ أهمَّ مما يعالجُ حَقَّها، وقد يؤدي هذا إلى تشويه حضارةٍ ما أو تقديم صورةٍ مزيفةٍ لها، فتنبعث الحزازاتُ والحساسياتُ الفكريةُ الضارية...

ينطبق هذا خاصة على صعيد الأديان، والإسلام مثلٌ نمطيٌ لتلك التأويلات الظالمة المشوهة، كما نعهد في لوحات فنّاني القرن التاسع عشر الغربيين الذين شغفوا بتصوير المسلمين (هذه هي الكلمة السليمة، لا كما يقول البعض: المحمديون) برابرةً غير متحضرين محاربين شاهري السيوف، أو مُترَفين غارقين في مجالس اللهو بين الحسان، وكما نعهد اليوم إذ تقفز إلى الأذهان ـ عند ذكر كلمة: إسلام ـ صورةُ فقيهٍ ملتحٍ متزمت، أو صورةُ إرهابيٍّ وَقِح مُنْحَطٍّ، لا وازعَ له، والحق أن تلك اللوحات وهذه الصور اليوم تستندان إلى التأويل الخطأ

الظالم، والشرح الآثم، والذي يستطيع كلُّ من درس الحضارة الإسلامية، أو خالط المسلمين أن يصوّبه ويبيّن خطأه وفساده.

لكننا ينبغي أن نتلمس العذر لمسيحيّ القرون الوسطى، فقد عرفوا أن الإسلام تلا المسيحية فظنوا أنه زندقة وارتداد عن الدين (المسيحي) ـ لهذا شاعت الأسطورة التي زعمت أن محمداً لم يكن سوى كاردينال كاثوليكي خرج على البابا ـ بل قد ظن بعضهم أن الإسلام نوع من الوثنية أو الديانات المجهولة البائدة لعصور ما قبل التاريخ (ولهذا نلقى حتى في أشعار الرومانسيين الألمان تصوراً لم ينطمس أثره حتى اليوم للمعبود الذهبي الصورة: ماهومت أي محمد)، ذلك التصور العجيب تشويه وإجحافٌ لدين جوهره الوحدانيةُ المطلقةُ، فهو لا يعترف سوى بالله ربًّا، ويشهد أن محمداً رسول اللّه (ولد عام ٥٧٠ وتوفي عام ٦٣٢)، ولقد دأب محمد نفسه على التأكيد أنه بشر يُوحى إليه.

الواقع أن الانتصارات السياسية للأمة الإسلامية التي أخذ أتباعها آنذاك في الازدياد بشكل مذهل، حتى لقد تجاوزت عام ٧١١ مضيق جبل طارق إلى الغرب، وذلك لتُرسي قواعد الحضارة المشرقة في الأندلس، وامتدت في العام ذاته إلى ما وراء النهر واضعةً الأسس التي عليها قامت صروح المجالي الغنيةِ بإشعاعات الإسلام الخصيبة المتنوعة في أواسط آسيا، وامتدت كذلك في تلك الفترة إلى مراكز الحضارة الهندية في الهند والسند (جنوب الباكستان الحالية) فصبغتها بصبغة إسلامية، وضمتها إلى عقد الخلافة (الأموية)... هذا الامتداد الشاسع، ما كان لِيُهدِّئ من روع الغرب المسيحي الذي لمس بأس الخلافة الإسلامية وتفوقها سياسياً وحربياً. من المفهوم إذن أن يخشى الغرب تلك القوة الغالبة آنذاك.

في الوقت نفسه، أصبحت إسبانيا مركز إشعاع وبث حضاري بين أوروبا والعالم الإسلامي وحتى يومنا هذا، تشهد للحضارة الإسلامية مصطلحات لا حصر لها في ميادين العلوم الطبيعية والطب والفلك والحضارة بعامة، ناطقة بتأثير الحضارة الإسلامية الرفيعة في الأندلس حيث أظلّت اليهودَ والنصارى والمسلمين بيئةٌ واحدةٌ، سادها الوئامُ والتسامح والتلاقح الفكري والحضاري، ولا

نظن أن ذلك الصرح الحضاري الرائع تكَرَّر وجودُه في أية بيئة متحضرة حتى يومنا هذا.

شهدت إسبانيا كذلك أول ترجمة للقرآن باللاتينية، وقد صدرت عام ١١٤٣ وظلت مئات السنين المرجع المعوَّل عليه، ثم طبعت في بازل بسويسرا عام ١٥٤٣ عملاً بنصيحة مارتن لوثر، وحتى اليوم لا زالت ترجمات القرآن تَثْرى لكنها دائماً مصحوبةً ومذيَّلةً بدفاع المسلمين وتبريراتهم.

لقد نزل القرآن فيما بين عامي: ٦١٠ و ٦٣٢ في مكة ثم المدينة، وما من مترجم يستطيع أن يترجمه دون صعوبة بالغة. المسلم لا يشك في أن القرآن كلمة اللّه، نزّله بلسان عربي مبين، على النبيِّ الأمين، وأن ترجمته لا يمكن إلا أن تكون تقريبية ضمنية لا تضارع الأصل، إذ لا أحد، مهما بلغ من الحذق والكفاءة، يقدر أن يترجم ذلك الإعجاز الإلهي إلى لغة أخرى، وإلا فأين المترجم الذي يزعم ذلك؟! إن الإيقاع اللفظي والموسيقى الداخليةَ وتعددَ طبقاتِ النبر همساً وجهراً، وغيرَ ذلك مما تحفل به اللغةُ العربية، ناهيك بلغة القرآن ونظمه المعجز، كل ذلك يجعل النقل من العربية إلى غيرها عسيراً. الحق أن كل ترجمة للقرآن مهما بلغت عاجزةٌ عن الوفاء بروح النص ولفظه، كما نعرف من ترجمات الآثار الأدبية والفلسفية التي ليست تقاس بالقرآن... وإذا كانت الترجمة صعبة، فإن هنالك صعوبات أخرى يصطدم بها قارىء القرآن غير المسلم، نعني ترتيب سور القرآن الأربع عشرةومئة، فالسور ليست مرتبة تاريخياً وإنما مرتبة حسب الطول، فيبدأ القرآن بسورة البقرة أطولِ السورِ إطلاقاً، وإن سبقتها سورة الفاتحة التي تتألف من سبع آيات فحسب، كذلك سورة الفلق وسورة الناس اللتان تحتتمان القرآن، فالفلق خمس آيات والناس ست آيات بينما تسبقهما سورة الإخلاص وآياتها أربع فقط.

إن قصار السور في المصحف الحالي الذي أقره على هذا الترتيب الخليفة الثالث عثمان بن عفان هي في الواقع أوائلُ السُوَر نزولاً، بينما طِوال السور في معظمها مدنيةٌ، نزلت في وقت متأخر بعد الهجرة إلى المدينة، حيث كان الرسول الكريم في شغل دائم بأمور الصحابة والأمّة، ينظمها وفقاً لآيات التشريع المدنية، فذلك كله مما يشكل صعوبة على غير المسلم في اتباع منهج واضح

في قراءة القرآن وفهمه، ولقد يقرأ آية أو آيات لا تمتّ للسياق بصلة مباشرة أو لا يهتدي إلى القرينة التي تُعينه على فهمها، مما يجعل القارىءَ يخطىء في استنتاجاته أو أحكامه التي يبنيها على فهمه الخاطىء.

كذلك، فإن من النادر أن يفطن غير المسلم إلى الصبغة الإسلامية المتأصلة التي أضفاها القرآن على لغات الشعوب التي اتخذت الإسلام ديناً: فكثير منها يتوسل بالألفباء العربية في كتابة لغته، كما لَوَّنتِ الصورُ والتعبيراتُ المستمدةُ أو المقتبسةُ من القرآن آدابَ تلك الشعوب وفنونَها، بل إن العلومَ نفسَها نشأت في كثير من البلاد الإسلامية وتطورت منطلقةً من دراسة القرآن، ثم إن فن الخط والتجويد والتلاوة وفنوناً أخرى شبَّت وترعرعت وازدهرت لإعطاء كلمة اللّه (القرآن) ما يليق بها من حفاوةٍ، مثالُ ذلك علم البلاغة... ولنا أن نزعم أن الأعمالَ الأدبيةَ القديمةَ، ومؤلفاتِ أعلام الإسلام، سواء ما كتب بالعربية أو الفارسية أو التركية أو الأوردو أو غيرِها من اللغاتِ التي يتوسَّلُ بها المسلمون، لا يسهُل فهمه إذا لم يكن القارىء على دراية كبيرة بألفاظ القرآن ونَظْمه.

إن القرآن في اعتقاد المسلم كلمةُ اللّه مجسدةً في كتاب، كما أن عيسى في اعتقاد المسيحيين كلمةُ اللّه المجسدةُ لحماً، أي أن محمداً هو الوِعاء الذي احتوى كلمةَ اللّه فتدفقت منه إلى العالم، وكما أن القرآن ظل قروناً وقروناً غير مفهوم بحيث أسيء فهمه، كذلك ظلت صورة النبي محمد غير مفهومة، بحيث أسيء تصوير شخصيته، إذ هو لكل مسلم أسوة حسنة وقدوة مُثلى في كافة أفعاله وأقواله، فترى المسلمين حريصين على اتِّباع سنّته، والاقتداء به، بصفته المثل الأعلى للمسلم.

لم يكن محمد نبيًّا يطوف بالبلاد، واعظاً، معلماً حريصاً على نشر تعاليمه في المدن والقرى والبوادي، وإنما كان رجلاً يأتي أزواجه، ولقد رُزِق البنين والبنات، حتى لقد أثارت زيجاته المختلفة بعد وفاة السيدة خديجة عدمَ الارتياح لدى مسيحيي القرون الوسطى، الذين درجوا على حياة التنسك والزهد، ولقد زاد من شعور عدم الارتياح أن الرسول بعد الهجرة (عام ٦٢٢) انصرف في المدينة إلى تكوين حكومة أو دولة يترأسها بشخصه، بينما القداسةُ المفروضُ توافُرها في

مثل شخصيته كنبيٍّ لا تتفق مع سياسة الدول والقبض على أزمة الحكم... هاتان النقطتان بالذات تلقيان لدى المسلم كل إعجاب وتقدير، فالحياة عبادةٌ وعملٌ، والربط بين هذين الجانبين ربطاً مثاليًا يدل على عظمة النبيِّ القائد، لهذا يُثار الجدل الذي لا نهاية له حول طبيعة أو ماهية الدولة في الإسلام، والذي يجب أن ننظر إليه بمنظار الإسلام.

وكما أن تفاسير القرآن تتجدد باختلاف العصور والمشارب والمذاهب، كما في تفاسير السلف المشهورة وتفاسير الصوفية، وأهل الظاهر والباطن وغيرهم، كذلك فإن تصوير شخصية الرسول لم تسلم من التجلِّي في أوضاع مختلفة حتى لم تنج من الأساطير التي حيكت حولها حتى خرجت به عن كونه بشراً، رغم أنه حرص على التأكيد دائماً أنه بشرٌ يُوحى إليه، فنرى أصحاب الصوفية يجعلونه شخصيةً نورانيةً من نور فحسب، بل هو لديهم المخلوقُ الأولُ الذي خلقه اللّه وسوَّاه، والذي لم يخلق الخلقَ لولاه، فهو لديهم سببُ الخلق وغايتُه، بينما هو لدى المسلم المعاصرِ، غيرِ الصوفي، مصلحٌ اجتماعيٌ مثاليٌ.

إن الرقعة الشاسعة التي يمتد على صعيدها الإسلام مكانيًا وزمانيًا هائلةُ الأبعاد، لذا نجده يتخذ صبغاتٍ متفاوتةً تُميزه، كما في إسلام أندونيسيا وإفريقيا السوداء مثلاً، وعلى الذين يعجبون لتعدد هذه الصبغاتِ ألا ينسوا تعددَ مسوحِ النصرانيةِ وأشكالَها المتباينةَ، والتي تطالعنا مثلاً في أيقونات الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية الملونة، والتي تزين الحوائط، كذلك كنائس الكالْفينيِّن العاطلةِ من كل زينة أو رسوم، وكنائسِ الكاثوليك الأيرلنديين، والتي تُطالعنا في تشدد المنهجيين المتزمتين المسيحيين أيضاً[١٠].

بيد أن علينا أن نفطن وأن نشير إلى أن تعدد الصبغات الإسلامية لا تنفي اتفاق المسلمين جميعاً على أصل ثابت يجمعهم، ألا وهو شهادة أن لا إله إلا اللّه، وأن محمداً رسول اللّه، وأن اللّه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ﴿**قل هو اللّه أحد. اللّه الصمد. لم يَلد ولم يُولد. ولم يكن له كُفُواً أحد**﴾ وأن اللّه لا شريك له، ﴿**إن اللّه لا يغفر أن يُشرَكَ به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ (النساء، الآية ٤٨).

أما الشطر الثاني من الشهادة، فيعني فيما يعني ـ أن محمداً آخر الأنبياء والمرسلين، به انتهت سِلْسِلَتُهم البادئةُ بآدم، وتَمَّ نزول الوحي واختُتِمَ بالقرآن، الذي بيَّنَ للناس شريعة اللّه واضحةً جليةً، وبعدها انقطع الوحي بَعْدَ هذا الوضوحِ النهائي.

هذه الحقائقُ البسيطة يجب أن نضعها نصب أعيننا، مدركين دائماً أن الإسلام، الذي يعني لغوياً الخضوع والتسليم للّه وحده، يُلِحُّ على أن اللّه سبحانه وكلمته محور الحياة وجوهرها. إن الكثير من الأحكام الظالمة التي نُلْصِقُها بالإسلام ناشئةٌ عن سوء فهمنا وخطئنا في القياسِ المنطلقِ من معاييرنا الغربية ومُثُلِنا أو قِيَمِنا ـ وليدةِ القرنِ العشرين المشرفِ على النهاية، وهنا لُبُّ المشكلة والتي يجسدها تساؤلنا: هل يمكن أن تكون القيمُ الغربيةُ، قيمُ المجتمعِ المعدومِ الإله، قِيَماً مُطْلَقَةً؟!!.

يكفي أن نعرف أن الجيلَ المنصرمَ، جيلَ أجدادنا، لو رأى مجتمعَنَا اليوم لأنكر الكثيرَ، ولتملّكه العجبُ والحزن، ولهالَهُ وراعَه ما يرى ويسمع من بِدَعٍ لم يألفْها، مما يُعدّ اليوم عادياً جدًّا... أما كنا ـ ولا زلنا ـ نذهب إلى القداس في الكنائس غيرَ حاسرات الرؤوس؟!.

إن تغطية الشعر عادةٌ مغرقةٌ في القِدَم، لم يبتدعها الإسلام، ذلك أن الشعر في معتقدات إنسان ما قبل الميلاد بقرون، كان مشحوناً بالقوة، وحسبنا أن نشير إلى قصة شمشون ودليلة، وكيف فقد شمشون قوته الخرافية بعد اجتزاز شعره.

وتعرف اليهوديةُ عادة تغطيةَ الرأس، عادةً متبعةً لدى المتدينين والمتدينات من اليهود، ولا تزال المرأة اليهودية الحريصةُ على دينها تغطي شعرها ولو بباروكة شعر مستعار، ولا يزال اليهودي الحريص على دينه يحضر إلى جامعة هارفارد ـ سواء الطالب أو المحاضر ـ وعلى رأسه الطاقية التي تغطي قمة رأسه، فلماذا إذن لا ينبغي أن تغطي التركية ذاتُ الدين رأسَها أو شعرَها؟!

إن على المسلمة أن تغطي شعرها أثناء الصلاة أو تِلاوة القرآن فحسب، لكن المرأة مثل الرجل تماماً في الإسلام لا فرق بينهما في أداء العبادات المفروضة

والالتزام بأوامر الدين ونواهيه كما أمر اللّه والرسول، ويكرر القرآن كثيراً الخطاب إلى المؤمنين والمؤمنات، مبيناً لهم ما أحلّ اللّه وما حرّم اللّه.

حقًّا، إن المرء عدو ما يجهل ـ كما يُروى هذا القول عن علي بن أبي طالب ـ ذلك أن المرء إذا حاول الرجوع إلى جذور الحضارة التي يجهلها، يتكشّف له الكثير ويصبح قريباً إلى الفهم: حينئذ يتبين الغربي أن مصطلحَ «الحرب المقدسة» الذي استُهْلِكَ باستخدام وسائل الإعلام له بإلحاح في السنتين الأخريين، مصطلحٌ لا علاقة له بالإسلام، ولا يمتّ من قريب أو بعيد لمصطلح «الجهاد» بصلة، وإنما هو مصطلح من مخلّفات الحروب الصليبية، أما «الجهاد» فكلمة عربية تعني حرفيًّا لغويًّا: النَّصَب والسعي الدائب، ويعني دينياً الجهاد في سبيل الله، بالذود عن الدين دفاعاً، لا عدواناً واعتداءً باغياً، وإذا لزم الأمر فالجهاد مشروع لنشر دين اللّه.

ولكن الجهادَ يعني أيضاً «جهادَ النفس» حيث يسعى المسلم إلى جهاد ضعفِه شخصيًّا، أيًّا كانت صورة هذا الضعف.

إننا نستطيع أن نستعرض مثل تلك الأحكام الظالمة المبنية على سوء الفهم، ودحضها وتبيينَ خَطَلِها بالتفصيل، لذا فإننا مدينون بالشكر والامتنان لمؤلف هذا الكتاب، فهو بصفته ألمانيًّا متبحراً في دراسة القانون والفلسفة، مسلماً على علم بما يقول ويكتب، يقدّمُ نظرتَه التحليلية أصيلةً جديرةً بالاحترام... فهو كتابٌ له وزنه لجلاء ما غمض على كثيرين.

ويتفق المؤلف الدكتور مراد هوفمان في دراسته التحليلية هنا للإسلام كما تعرفه السُنَّةُ وتَفْهَمُهُ فهماً مثالياً مع المرحوم العلامة الباكستاني فَضْلُ الرحمن، الذي عانى معاناة شديدة في وطنه لقوله بالسُنّة الحيّة، أي أن لفظ الحديث غيرُ ذي أهمية بالقياس إلى روحِ السنَّة نفسِه، مما جرّ عليه غضب المتطرفين المتزمتين من فقهاء الباكستان، وهذه النظرة ونظرته الأخرى التي يرفض فيها تصوف ابن عربي، على جانب كبير من الأهمية.

ولا شك أن الدكتور مراد هوفمان واجدٌ في كثير من كلمات الشاعر الهندي المسلم محمد إقبال آراء متفقة مع ما يذهب هو إليه من حيث ضرورة تفسير

جديد للإسلام على أسس القرآن. ويؤكد هوفمان كلَّ ما يدعو إليه القرآن من أفكار تتكشف وتتجلى لمن يتدبر القرآن يوماً بعد يوم، كذلك الأمانةَ التي حَمَلَها الإنسان فهو مكلَّفٌ بأداء الفرائض والإصلاح في الدنيا، بأن يصلح في الأرض ولا يفسد فيها، وأن يؤدي حق ما رزقه الله من سمع وبصر وفؤاد ﴿**إن السمعَ والبصرَ والفؤادَ، كلُّ أولئك كان عنه مسؤولاً**﴾ (الإسراء، الآية ٣٦).

ويشجب المؤلف ويدحَضُ ما يحلو لنا نحن الغربيين أن نطلق عليه «الجبريةَ الإسلامية»، والتي يراها كثيرون مِنّا سبباً رئيسياً لجمود الإسلام وركوده. وأنا شخصياً، أرى أن وجهة نظر الدكتور هوفمان لتلك الجبرية على جانب كبير من الأهمية: فهو يبين أن التوكل عَلى اللّه والثقةَ المطلقةَ في رحمته وعدله، لا تعني التواكل وعدم السعي الدائب والجهاد، فالتوكل على اللّه يساعد المسلم على تحمل القضاء والقدر، لأن ثقته في اللّه تجعله متيقناً أن اللّه وحده يعلم ماذا ينفع كلَّ عبدٍ ومتى.

إن الإسلام يحث على السعي، والقرآن يؤكد ذلك ﴿**وأنْ ليس للإنسان إلاّ ما سعى...**﴾ (النجم، الآية ٣٩). ويُنْسَبُ إلى الرسول حديثٌ معناه أن الدنيا حرث الآخرة فكلُّ عملٍ مأجورٌ ثواباً أو عقاباً ﴿**ولا تَكسِب كلُّ نفسٍ إلا عليها**﴾ (الأنعام، الآية ١٦٤). فالجبرية الإسلامية لا تبطل الفعل ولا تعني عدم السعي وإنما تعلمنا أن للفعل معنًى أو مغزًى، كذلك قل في البلاء، والصبر إذا حُمَّ القضاء، في الضراء وحين البأس: يعرف ذلك من شاهد ـ مثلي ـ ثكلى تركيةً مسلمة، وصبرَها وتعزيتَها للنادبات الباكيات اللاتي جِئْنها مواسياتٍ لاختطاف الموت أصغرَ بنيها العشرةِ، وأحبَّهم إليها... إن من أُتيح له أن يرى هذا، مثلما رأيته بنفسي، يُدْرِكُ تماماً ما أرمي إليه.

أجل! لا ريب أن هذه النظرة الإسلامية للقضاء والقدر تبدو غريبةً في عيني الإنسان الغربي، بل قل غيرَ معقولة أو مقبولةَ، مع أنها نظرةٌ أقربُ ما تكون إلى المسيحية الأولى، التي نادت بالتوكل المطلق على اللّه الخالِق كلِّ شيءٍ، الحفيظِ، الحكمِ العدلِ، الذي من أخصّ أسمائه الرحمنُ الرحيمُ، فلا عجب أن

تتصدر البسملةُ سورَ القرآن، وأن تَتَصَدَّرَ كلَّ فعلٍ أو قولٍ يتقرب به العبد المسلم إلى اللّه.

إن من المحزن اليوم حقاً أن لا يميِّز كثيرون في الغرب بين الإسلام وبين ما يُلْصَقُ زوراً وبهتاناً بالإسلام أو ما يُقْتَرَفُ من جرائمَ باسم الإسلام، فالإسلام بريءٌ من الإرهاب والإرهابيين ومن الأصوليين (هذا التعبير الذي لا يمتّ إلى الإسلام بصلة، فهذه الكلمة تطلق في اللاهوت على اتجاه معين في أمريكا! ويريد الإعلام الغربي بهذه الكلمة المتطرفين المسلمين: تعليق الكاتبة للمقدمة نفسها!)، بيد أن علينا أن نتلمس العذر لمن يظن الإرهابيين والمتطرفين مسلمين مؤمنين، ذلك أن الحضورَ الفعليَّ للجماعات الإسلامية المعتدلة في الغرب يكاد يكون غيرَ ملموسٍ أو محسوسٍ، بينما الظواهرُ الغريبةُ كلَّ الغرابة على تصورِنا الديني، والتي تَنْسِبُ نفسَها إلى الإسلام تجذب إليها الأنظارَ التي تراها فتظنُ أنها هي الإسلام.

من جهة أخرى، وإحقاقاً للحق، ينبغي أن نتساءل: وهل نصف نحن المسيحيةَ بأنها إرهاب؟ أو هل نخلط بينها وبين الإرهابيين والمتطرفين الغربيين الذين يمارسون أنشطة إرهابية في مختلف أنحاء أوروبا؟ لكم يبدو لي أحياناً أن خوف الأوروبيين من الزحف التركي ما زال عالقاً بذاكرتهم، التي لم تَنْسَ وقوف الترك مرتين أمام أبواب فيينا عامي ١٥٢٩ و ١٦٨٣، كأن ذلك الخوف الدفين لم تَخْبُ نارُه فتراه يصبغ سلوكَ كثيرٍ من الناس إزاء دين الترك، الذي هو دين العرب والفرس ومسلمي شبه القارة الهندية... إن عدداً غيرَ قليل من مثقفينا لا يعرف مثلاً أيَّ شيء عن كنوز الفنون والآداب الإسلامية الزاخرة بالروائع والنفائس، ولا يعرف أيضاً أن المعماريين المسلمين هم الذين شيدوا القصور، مثل الحمراء في غرناطة وقبر «تاج محل» في الهند وغير ذلك... ولكم طال التغني بروعة ذلك المعمار، وما شيد من آثار... ثم مَنْ مِن المسيحيين يعرف يقيناً أن الإسلام يرفع عيسى وأمَّه إلى أعلى الدرجات، فعيسى هو آخر الأنبياء قبل محمد، فهو كلمة اللّه ألقاها إلى مريم وروح منه، أجل لقد كان عبداً صالحاً مباركاً أتاه اللّه الكتاب وجعله نبيًّا، غير أن الإسلام يرفض فكرة صلب المسيح **﴿وما قتلوه وما صلبوه، ولكن شُبِّه لهم...﴾** (النساء، الآية ١٥٧)، **﴿بل رفعه اللّه إليه، وكان اللّهُ عزيزاً حكيماً﴾** (النساء، الآية ١٥٨).

وبَعْدُ، فإنني أزعم أن القارىء سيقع في هذا الكتاب على كثير من التفسيرات والتحليلات التي يجهلها أو التي يجدها جديدة عليه، وأزعم أن القارىء سيعجب أو يدهش، بل قل سَيُصْدَمُ لموقف الدكتور مراد هوفمان الجلي الواضح كل الوضوح، فهو ثابت القدمين على أرض الإسلام الذي عرفه السلفُ كما بلّغ الرسولُ وكما طبّقه الصحابةُ والتابعون، وذلك دون تقديرٍ منه للتصوف الذي أراه أقرب إلى نفسية الغرب. إن الإسلام السلفي التقليدي الذي يرى فيه الغربُ بقايا باليةً موروثةً عن صيغ وأشكالٍ طاعنةٍ عتيقةٍ قروسطية (من القرون الوسطى)، إنما هو في نظر المؤلف دينٌ قيم حيٌّ سامٍ جديرٌ بالبقاء، وأرجو أن يفلح المؤلف في تقريب هذا الذي يرى إلى البيئة الغربية.

أخيراً، ينبغي ألا ننسى بَيْتَيْ جوته، في الديوان الشرقي الغربي، الذي يشهد له بالبَصَرِ العميق في عالم الفكر الإسلامي: إن يكُ الإسلام معناه القنوت... فعلى الإسلام نحيا، ونموت.

أ. دكتورة آنا ماري شمل،

ديسمبر ١٩٩١ م.

تمهيد

بقلم د. مراد هوفمان

تشهد سوق الكتب (في الغرب) سيلاً متدفقاً من المنشورات والمؤلفات عن الإسلام، وذلك منذ النكبات الأخيرة المحزنة، التي امتحن بها العالم الإسلامي.

على أن النظرة الثاقبة الممحصة تتبين قلةَ المؤلفين الموضوعيين الأَكْفَاء، الحريصين على توصيل الخلفية الفكرية والروحية للإسلام بوصفه ظاهرة حضارية فذة. ويَقْنَع بعض القراء بالتحليلات السطحية السياسية والاجتماعية، يدفعهم إلى ذلك الخوف مما يتصورونهم أصوليين متطرفين متزمتين والخوف مما يعتبرونه بالحرب المقدسة.... ومن بطش سيف الإسلام (هذا الزعم يقابلنا في مواضع متعددة من الكتاب). الحق أن ديناميكية المسلمين المعاصرين أو حركيتهم، ومقدرتهم على التعايش السلمي لا يتسنى لمسهما ومعرفتهما دون تفهم الإسلام، ذلك الدين العالمي بعظمته الروحية والفكرية والعقلية.

وهذا الكتاب الذي ألفه أحد المسلمين الألمان في عشرين فصلاً، ليس إلا محاولة لتناول الإسلام ديناً وحضارة، ولا أظن أننا نضرب في حديد بارد، إذ إن الموضوع موضوع الساعة.

إنه مرافعةٌ تدافع عن الإسلام وتزكيه، جذورها ضاربة في التاريخ، وأسسها قائمة على العلم والموضوعية، مع وعي المؤلف التام بالمعاناة والأدواء والمشكلات، لكنه على كل ذلك خال من التبريرات والاعتذارات المعروفة في اللاهوت، والتي تتغيّا الدفاع عن الدين.

كان الإسلام، إبان الصراع بين العالم الغربي والشيوعية، يستطيع أن يَعُدَّ نفسه الطريقَ الثالثة المباينة لهما، أي أنه الخَيار الحر المستقل عن كليهما لفهم العالم والتعامل معه عقائدياً، أما اليوم فإن الإسلام يطرح نفسه **بديلاً** لكلا النظامين،

وذلك لتوفير الحياة على أفضل وجه، وتذليل مشكلاتها المستفحلة، خاصة بعد أن عاد العالم من جديد مصطرع كتلتين اثنتين.

ولا يخفى على المتأملِ البعيدِ الرؤية أن يرى الزحف الإسلامي في القرن الحادي والعشرين مسيطراً، ممكناً لانتشاره ديناً لأغلبية البشر، أما كونُ هذا الزعم، الذي تؤكده مَجْرَياتُ الأمور، حقيقةً واقعة، إن شاء اللّه، فذلك ما يشير إليه عنوان هذا الكتاب.

إن الإسلام لا يطرح نفسه بديلاً (خياراً) للمجتمعات الغربية بعدِ الصناعية. إنه بالفعل هو البديل الوحيد.

الرباط رمضان ١٤١٢ هـ (١٩٩٢ م) **الدكتور مراد فلفريد هوفمان**